

سورة الملك

مكية، وهي ثلاثون آية [نزلت بعد الطور]
وتسمى: الواقعة، والمنجية؛ لأنها تقي
وتنجي قارئها من عذاب القبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرْرَيْنٍ لَّنَفَلْتِ إِلَىٰكَ الْبَصَرَ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿تَبَرَّكَ﴾ تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ على كل موجود ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قَدِيرٌ﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة: ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل: ما يوجب كون الشيء حيًا، وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر. والموت عدم ذلك^(١) فيه ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ وسمى علم الواقع منهم باختبارهم «بلوى» وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمُ﴾ [محمد: ٣١]. فإن قلت: من أين تعلق قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بفعل البلوى؟ قلت: من حيث أنه تضمن معنى العلم، فكانه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً؛ وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً

(١) قال محمود: «أي ما يوجب كون الشيء حيًا أو ما يصح بوجوده الإحساس والموت عدم ذلك... إلخ» قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله ذكرها: أن الموت عدم، وهو خطأ صراح. ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة، وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقًا حادثًا وعدم الحوادث مقرر أولًا: لزم قطع الحوادث أولًا، وذلك أبشم من القول بقدم العالم؛ فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه. وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

أم هو؟ كانت هذه/ ٢/ ٢٢٩ الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه، كما تقول: علمته هو أحسن عملاً. فإن قلت: أتسمي هذا تعليقا؟ قلت: لا، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعا، كقولك: علمت أيهما عمرو، وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق. وعلمت زيدا منطلقا. ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. قيل: أخلصه وأصوبه؛ لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص؛ فالخالص: أن يكون لوجه الله تعالى؛ والصواب: أن يكون على السنة. وعن النبي ﷺ أنه تلاها، فلما بلغ قوله: ﴿إِنَّكُمْ أَسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»^(١) (١٦٤٣) يعني: أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه؛ والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه. وقدم الموت على الحياة، لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وَهُوَ الْكَرِيمُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الْفَقُورُ﴾ لمن تاب من أهل الإساءة ﴿طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض، من طباق النعل: إذا خصفها طبقا على طبق، وهذا وصف بالمصدر. أو على ذات طباق، أو على: طبقت طباقا ﴿مِن تَقْوَبٍ﴾ وقرئ: «من تفوت»، ومعنى البناءين واحد، كقولهم: تظاهروا من نسائهم. وتظاهروا. وتعاهدته وتعهدته، أي: من اختلاف واضطراب في الخلق ولا تناقض؛ إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت، بعضا ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت. وفي نقيضه: متناصف. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله: ﴿طِبَاقًا﴾ وأصلها: ما ترى فيهن من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله: ﴿خَلَقَ الرَّحْمَنُ﴾ تعظيما لخلقهن، وتنبهها على سبب سلامتهن من التفاوت: وهو أنه خلق الرحمن، وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلن مثل ذلك

١٦٤٣ - تقدم الكلام عليه في أول سورة هود.

(١) قال محمود: «أين تعلق قوله: (أيكم أحسن عملا) بفعل البلوى؟ وأجاب بأن معناه يعلمكم أيكم أحسن عملا؛ لأن البلوى تتضمن العلم... إلخ» قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة، والأصح ما أجازته، وهو في هذا الفن يمشي وفيه يدرج ويدري كيف يدخل فيه ويخرج.

الخلق المناسب، والخطاب في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب. وقوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ﴾ متعلق به على معنى التسيب؛ أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن، ثم قال: ﴿فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ﴾ حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعينة، ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ من صدوع وشقوق: جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير، كما يقال: شق وبزل. ومعناه: شق اللحم فطلع. وأمره بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتبعاً يلتمس عيباً وخللاً ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ﴾ أي إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور، أي: بالبعد عن إصابة الملمس، كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار والقماء^(١)، وبالإعياء والكلال لطول الإجاله والترديد. فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجعه كرتين اثنتين؟ قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة^(٢)، كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهرين سعد القين^(٣) من ذلك، أي: باطلاً بعد باطل. فإن قلت: فما معنى ثم ارجع؟ قلت: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

﴿الدُّنْيَا﴾ القريبى؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناها: السماء الدنيا منكم. والمصابيح^(٤) السرج، سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأنقاب

- (١) قوله: «بالصغار والقماء» أي: الصغر والذل، كما في الصحاح. (ع)
- (٢) قال محمود: «لم خص الكرتين؟ فأجاب بأن معنى التثنية ههنا الكثير... إلخ» قال أحمد: وفي قوله (ينقلب إليك البصر) وضع الظاهر موضع المضمرة. وفيه من الفائدة: التنيه على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء. ومن هذا القبيل قوله: (خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه ذكرهن منسوبات لخلق الرحمن، تنبيهاً على السبب الذي ربا بهن على الفطور والتفاوت.
- (٣) قوله: «دهدرين... إلخ» في القاموس يضم الدالين وفتح الراء المشددة: اسم لبطل، وللباطل والكذب كالدهدر، ودهدرين سعد القين: أي بطل سعد الحداد. أو أن فينا ادعى أن اسمه سعد زماناً، ثم تبين كذبه، فقبل له ذلك، أي: جمعت باطلاً إلى باطل يا سعد الحصاد. ويرى منفصلاً «ده» أمر من الدهاء؛ و«درين» من در: أي تتابع، أي: بالغ في الكذب يا سعد. وفيه غير ذلك، فراجع؛ كذا بهامش الأصل. (ع)
- (٤) قوله: «ودورهم بأنقاب المصابيح» في الصحاح «ثقت النار»: اتقدت. وأثقتها أنا. وشهاب ثاقب، أي: مضيء. (ع)

المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بِمَصْبِيحٍ﴾ أي بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وضممنا إلى ذلك منافع آخر: أنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ لأعدائكم: ﴿لِشَيْطَانٍ﴾ الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات بهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وعن محمد بن كعب: في السماء والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة. والرجوم: جمع رجم: وهو مصدر سمي به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجم للشياطين: أن الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب/ ٢/ ٢٢٩، لا أنهم يرحمون بالكواكب أنفسها؛ لأنها قارة في الفلك على حالها. وما ذلك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لا تنقص. وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهب. ومنهم من يخبله. وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم الجامون^(١). ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ (١) إِذَا الْقَوْلُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْئًا وَهِيَ تَنُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كَمَا أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ فَدَجَأْنَا نَذِيرٌ فَكَاذِبًا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك. وقرئ: «عذاب جهنم» بالنصب عطفًا على عذاب السعير ﴿إِذَا الْقَوْلُ فِيهَا﴾ أي طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة، ويرمى به. ومثله قوله تعالى: ﴿حَصَّبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ﴿سَمِعُوا لَهَا شَيْئًا﴾ إنا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها. أو من أنفسهم، كقوله: ﴿كُنْتُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] وإما للنار تشبيهاً لحسيسها^(٢) المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وَهِيَ تَنُورٌ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه. وجعلت كالمقظة عليهم لشدة غليانها بهم، ويقولون: فلان يتميز غيظًا ويتصف غضبًا، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء: إذا وصفوه بالإفراط فيه. ويجوز

(١) حمل الزمخشري الشياطين على ظاهره، ونقل عن بعضهم أن معناه: وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب... إلخ قال أحمد: وهذا من الاستطراد. لما ذكر وعيد الشياطين استطراد ذلك وعبد الكافرين عموماً والله أعلم.

(٢) قوله: «تشبيهاً لحسيسها» في الصحاح: الحس والحسيس: الصوت، والخفي. (ع)

أن يراد: غيظ الزبانية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ توبيخ يزدادون به عذاباً إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخزنتها: مالك وأعوانه من الزبانية ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عنهم بيعة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة^(١)؛ وإنما أتوا من قبل أنفسهم، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده. فإن قلت: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي صَكَلٍ كَبِيرٍ﴾ من المخاطبون به؟ قلت: هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين، على أن النذير بمعنى الإنذار. والمعنى: ألم يأتكم أهل نذير. أو وصف منذروهم لغلوهم في الإنذار، كأنهم ليسوا إلا إنذاراً؛ وكذلك ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] أي حاملاً رسالته. ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول: أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا. أو أرادوا بالضلال: الهلاك. أو سموا عقاب الضلال باسمه. أو من كلام الرسل لهم حكوه للخنزة، أي قالوا لنا هذا فلم نقبله ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالبين للحق^(٢). أي نعقله عقل متأملين. وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل؛ لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفسير: أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب^(٣) الرأي، كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكان سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكان من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة؛ وعدة المبشرين من الصحابة: عشرة، لم يضم إليهم حادي عشر، وكان من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوها باسم هذين الفريقين ﴿يَذَنَّبُهُمْ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا﴾ قرئ بالتخفيف والتثقل، أي: فبعداً لهم، اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم.

(١) قوله: «كما تزعم المجبرة» إن كان مراده أهل السنة كعادته لقولهم: إنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد، وأنها بقضائه تعالى وقدره، بل من جهة ما لهم فيها من الكسب والاختيار كما تقرر في محله وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء لا دخل له في عمله أصلاً، فقد أصاب للفرق الضروري بين حركة اليد في البطش وحركتها في الارتعاش، كما تقرر في علم التوحيد، فارجع إليه. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه لو كنا نسمع للإنذار سماع طالبين للحق... إلخ» قال أحمد: إن عنى أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقيح، فهو غير بعيد من أصحاب السعير. وإن عنى أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية: فهو مع أهل السنة.

(٣) قال محمود: «ومن بدع التفسير أن المراد: لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي... إلخ» قال أحمد: ولو تفتن نبيه لهذه الآية لعدّها دليلاً على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها.

﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

﴿الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم^(١) في علم الله بهما، ثم أنه علله بـ ﴿إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به. ثم أنكر ألا يحيط عالمًا بالمضمر والمسمر والمجهر ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ الأشياء^(٢)، وحاله أنه اللطيف الخبير، المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ منصوبًا بمعنى: ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. وروي أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء، فيظهر الله رسوله عليها، فيقولون: أسروا قولكم لثلاث سمعه إله محمد، فنبه الله على جهلهم. فإن قلت: قدرت في ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مفعولاً على معنى: ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق، فهلا جعلته مثل قولهم: وهو يعطي ويمنع؛ وهلا كان المعنى: ألا يكون عالمًا من هو خالق؛ لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم؟ قلت: أبت ذلك الحال التي هي قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لأنك لو قلت: ألا يكون عالمًا من هو خالق وهو اللطيف الخبير: لم يكن معنى صحيحًا؛ لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال والشيء لا يوقت بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بك شيء.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا ۚ ٢ / ٢٣٠ فِي مَنَازِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

﴿النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

- (١) قوله: «إسراركم وإجهاركم» في الصحاح «إجهار الكلام»: إعلانه. (ع)
(٢) قال محمود: «أنكر أن لا يحيط علمًا بالسر أو الجهر من خلق ذلك... إلخ» قال أحمد: هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح الطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم؛ فإن أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو اعلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة دلت الآية؛ فإن الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للباري عز وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله؛ وإعراب الآية ينزل على هذا المعنى، فإن الوجه فيها أن يكون (من) فاعلاً مرادًا به الخالق، ومفعول العلم محذوف، تقديره؛ ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك. والتقدير في الجميع: ألا يعلم السر والجهر من خلقهما. ومتى حذفنا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف؛ فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر، والتندير: ألا يعلم الله المسرين والجاهرين؛ وليس مطابقًا للمفصل، فإنه لم يقع ذوات الفاعلين، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر. وعليه وقع الاستدلال. ويحتمل غير ذلك أبعد منه. والأول هو الأولى لفظًا ومعنى. والله الموفق.

المشي في مناكبها: مثل لفرط التذليل ومجاورته الغاية؛ لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك^(١). وقيل: مناكبها جبالها. قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ التذليل. وقيل: جوانبها. والمعنى: وإليه نشوركم، فهو مسائلكم^(٢) عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿مَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩)

﴿مَن فِي السَّمَاءِ﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء؛ لأنها مسكن ملائكته وشمعره وكرسيه واللوح المحفوظ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيته. والثاني: أنهم كانوا يعتقدون التشبيه، وأنه في السماء، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه، وكانوا يدعونه من جهتها، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أمئتم من تزعمون أنه في السماء، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة: أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل، إذا رأيت يركب بعض المعاصي ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرئ: بالتاء والياء ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إذا رأيت المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم ﴿صَفَوَاتٍ﴾ باسقاط أجنحتها في الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صفن قوادمها^(٣) صفًا ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها. وأما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي^(٤)، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد

(١) قوله: «لم يترك» لعل هنا سقطا تقديره: لم يترك شيئاً منها إلا قد ذلله. (ع)

(٢) قوله: «فهو مسائلكم» عبارة النسفي: سائلكم. (ع)

(٣) قال محمود: «معناه: باسقاط أجنحتها؛ لأنها إذا بسطتها صفت قوادمها. . . إلخ» قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله: (والطير محشورة) بعد قوله: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن) ولم يقل مسبحات، مثل محشورة لقربه من هذا التفسير؛ ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

(٤) قوله: «من القوادم والخوافي» في الصحاح «قوادم الطير»: مقادير ريشه، وهي عشر ريشات في كل جناح. والخوافي ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح. (ع)

تأتى منها الجري في الجو ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْئًا بَصِيرًا﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ إِيَّا فِي عُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي بَرَزَكُمُورًا إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمَّنْ﴾ يشار إليه من الجموع ويقال ﴿هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه ﴿أَمَّنْ﴾ يشار إليه ويقال ﴿هَذَا الَّذِي بَرَزَكُمُورًا إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ وهذا على التقدير. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النواذب ويرزقون ببركة آلهتهم، فكانهم الجند الناصر والرازق. ونحوه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]. ﴿بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه.

﴿أَمَّنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يجعل «أكب» مطاوع «كبه» يقال: كبته فأكب، من الغرائب والشواذ. ونحوه: قشعت الريح السحاب فأقشع، وما هو كذلك؛ ولا شيء من بناء أفعال مطاوعًا، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه^(١)؛ وإنما «أكب» من باب «انفض، وأأم»^(٢) ومعناه: دخل في الكب، وصار ذا كب؛ وكذلك أقشع السحاب: دخل في القشع. ومطاوع كب وقشع: انكب وانقشع. فإن قلت ما معنى ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾؟ وكيف قابل ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ قلت: معناه: يمشي معتسفًا في مكان معتاد غير مستو فيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبًا، فحاله نقيض حال من يمشي سويًا. أي: قائمًا

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الرجل كثير التبيح بكتاب سيبويه وكم نص في كتاب سيبويه عمي بصره عنه. حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزور صنف كتابًا يذكر فيه ما غلط الزمخشري فيه وما جهله من كتاب سيبويه انتهى ما قاله الشيخ فانظر إلى هذا الرجل؛ الذي أخذ كلام، الذي أسلفته عنه، طرزته عبارته حرفًا بحرف ثم أخذ يجيء عليه بإساءة الأدب جزاء ما لفته تلك الكلمات الرائعة، وجعل يقول: إن مطاوع كب انكب لا أكب وإنما الهمزة في أكب للضرورة أو للدخول في الشيء، وبالله لو بقي دهره غير ملقن إياها لما قالها أبدًا. ثم أخذ يذكر عن إنسان مع أبي القاسم كالسها مع القمر أنه غلط في نصوص كتاب سيبويه، الله أعلم بصحتها. انتهى. الدر اخصون.

(٢) قوله: «من باب انفض وأأم» في الصحاح «انفض القوم» هلكت أموالهم. وانفضوا أيضًا: مثل ارموا فني زاهم. وفيه أيضًا: أأم الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لثيماً. (ع)

سالمًا من العثور والخرور. أو مستوي الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف، فلا يزال ينكب على وجهه، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكبر على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام. وبالسوي: رسول الله ﷺ، وقيل: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

﴿وَقُولُوا مَنَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير للوعد. والزلفة: القرب، وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: رأوه ذا زلفة أو مكانًا ذا زلفة ﴿سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ / ٢ / ٢٣٠ أي ساءت رؤية الوعد وجوههم: بأن علتها الكآبة وغشيتها الكسوف والفترة، وكلحوا، وكما يكون^(١) وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب ﴿وَقِيلَ﴾ القائلون: الزبانية ﴿تَدْعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء، أي: تطلبون وتستعجلون به. وقيل: هو من الدعوى، أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون. وقرئ: «تدعون»، وعن بعض الزهاد: أنه تلاها في أول الليل في صلاته، فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نودي لصلاة الفجر، ولعمري إنها لوقادة^(٢) لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسينيين: إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب النار؟ لا بد لكم منه، يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة، وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه. أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هدايتكم، والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمتنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم؟ فإنَّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن

(١) قوله: «وكما يكون» لعله كما بدون واو. (ع)

(٢) قوله: «إنها لوقادة لمن تصور» في الصحاح «وقذه» ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت. (ع)

يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم؛ وإن رحمتنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٦)

فإن قلت لم أخرج مفعول آمننا وقدم مفعول توكلنا؟ قلت: لوقوع آمننا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل: آمننا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلمون عليه من رجالكم وأموالكم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠)

﴿غورًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض. وعن الكلبي لا تناله الدلاء، وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا. وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفئوس والمعاول، فذهب ماء عينيه؛ نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الملك فكانما أحيأ ليلة القدر» (١٦٤٤)

١٦٤٤ - تقدم برقم (٣٤٦)

قال الحافظ:

أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب رضي الله عنه.